المرأة في حياة المتنبي وشعره

« إلى المرأة التي ألهمتني كل حديث عن المرأة »

للأستاذ حسن الأمين

هل كان للمرأة في حياة المتنبي أثر من بعيد أو قريب ، وهل كان لها في شعره توجيه خاص ، وهل بدت على هذا الشعر صبغة لها مساس أو بعض مساس بها ؟

لا بد لنا قبل التوغل في الجواب من أن نفرق في موضوعنا بين المرأة أماً وبينها زوجة أو حبيبة ، إذ لكل أثره الخاص وناحيته التي لا تشبه ناحية الآخر . فماذا كان تأثير الأم على المتنبي ؟ كل ما عرفناه عن أم المتنبي أنها كانت همدانية صحيحة النسب من صلحاء النساء الكوفيات[1] ومهما أراد الدكتور طه حسين أن يحيط بمولد المتنبي من الشذوذ[2] ومهما أردنا أن ندفع هذا الشذوذ فلا ريب أنه لم يكن لأم المتنبي أي أثر لا في حياته ولا في شعره ، بل إن المتنبي الذي تغنى بجدته لم يشر إلى أمه إشارة ولم يولها ذكراً . والدكتور طه حسين محق حين يقف طويلاً أمام هذه الظاهرة فيتساءل عن السر فيها . ولكننا لا يمكن أن نذهب معه إلى النتيجة التي وصل إليها من أن ذلك إنما كان لأن مولد المتنبي كان شاذاً ! ولماذا كان شذوذ المتنبي هو السر في ذلك ، ولا يكون السر فيه هو أن المتنبي لم يتم بتلك الأم ففقدها قبل أن يعرف المجتمع وينغمس في الحياة ؟ أكبر الظن أن أم المتنبي قد فارقت الدنيا قبل أن يقدر لابنها التعرف عليها والتمتع بعطفها وحنانها فتركته لأمها ، فكانت أمها له أماً ، وكانت عاطفة البنوة ملتهبة فيه لجدته ، لأنه لم يعرف غيرها أماً ، وإذا لم يكن الأمر كذلك فلماذا يذكر المؤرخون شوق جدته إليه ولا يذكرون شوق أمه ، ولماذا يعني برثاء جدته ولا يعني برثاء أمه ؟

(١) أنساب السمعاني وتاريخ بغداد (٢) مع المتنبي

ومهما كان مولد المتنبي شاذاً – على رأي الدكتور طه حسين – فإن هذا الشذوذ لن يحول دون شوق الوالدة إلى ولدها ولن يحول بين رثاء المتنبي لأمه لو كانت هذه الأم حية عند ما كان ابنها شاعر العرب ، ومهما يكن من أمر فالذي لا ريب فيه هو أن أم المتنبي بعيدة عن كل أثر في حياته وشعره ، وقد حلت محلها في هذا الأثر أمها فكان من تأثيرها في شعره تلك القصيدة الرثائية الخالدة التي قيل عنها : (أنه ورد عليه كتاب من جدته تشكو شوقها إليه وطول غيبته عنها فتوجه نحو العراق ولم يمكنه وصول الكوفة فانحدر إلى بغداد ، وكانت جدته قد يئست منه فكتب إليها كتاباً يسألها المسير إليه فقبلت كتابه وحمت لوقتها سروراً به وغلب الفرح على قلبها فقتلها)[1]

ونحن لا تهمنا العلة التي ماتت بها الجدة ولا فرق لدينا إذا كانت هذه العلة هي الفرح أو الحزن أو أية علة أخرى ما دامت قد ماتت قبل أن يراها ابن ابنتها وبعد أن أوشك أن يراها ، وقد كان المتنبي وهو الشاعر الحساس الملتهب الشعور المتأجج القلب كان حرياً به أن يخلد هذا الموقف الرائع بمثل ما خلده به من الشعر الذي لا نزال نحس فيه أحزان المتنبي وآلامه ، والذي لا نزال على تطاول العهد به مضرب المثل في الأسى العميق والشجن الدامي ، ومن ذا الذي لا يهزه هذا القول :

أحن إلى الكأس التي شربت بها
وأهوى لمثواها التراب وما ضما

وإذا كان المتنبي ينادي بأنه يحن إلى الكأس التي شربت بها جدته فما كان ذلك لأن هذه الجدة قد ماتت وملكه عليها الحزن فحسب ، بل كان ذلك لأن نفس المتنبي كانت في ذلك الحين قد امتلأت هموماً ، ولأن الزمن كان قد جرعه أمر الغصص ، ولأنه كان قد رأى بعينيه انهيار آماله في الحياة وأهل الحياة ، ولأنه كان قد وصل إلى حال أصبح يحن معها إلى ورود كأس

(١) الديوان

النية ، ثم فوجىء بموت القلب الذى كان يرى أنه وحده يخفق بحبه ، وأنه وحده الذى يستروح إليه ويعتمد عليه فصاح من أعماق قلبه فى ساعة يائسة (أحن إلى الكأس التى شربت بها) وها هو نفسه يزيد هذه الفكرة وضوحاً وجلاء فيقول :

عرفت الليالى قبل ما صنعت بنا
فلما دهتنى لم تزدنى بها علما

فهو قد قاس من صروف الليالى ما جعله سيء الظن بها وما جعله لا يترقب منها إلا الشر ، فلما أتته هذه الداهية لم يفاجأ بها ولم تزده علماً بما يحمله له الزمن من خبايا المصائب والمحن . ثم هو ذا يمعن فى الإيضاح والجلاء فيصور خيبة أمانيه وتلاشى أحلامه ، فلا ولاية ولا سلطان ولا حشم ولا اتباع بل حظ عاثر ويأس قاتل :

طلبت لها حظاً ففاتت وفاتنى
وقد رضيت بى لو رضيت بها قسما

وهكذا بعد أن طوف فى البلاد وراء (الحظ) ، فاته هذا الحظ وفاتته كذلك هذه الجدة الرؤوم ونحن نلمس فى عجز البيت خساً من الندم الخفى على تلك المغامرات والضرب فى الفلوات وراء الحظ المنشود ونلمس روحاً من الأسف المكبوت على أن لا يكون قد قنع فلم يجازف ورضى فلم يندفع ، وعلى أن لا يكون قد عاش إلى جانب تلك الجدة خلى البال من المطامح بدلاً من أن يعيش إلى جانب أولئك الذين لم يعرفوا حقه ولم يجيبوا سؤله ، ولا أدل على هذا الندم والأسف من البيت الذى يليه :

فأصبحت أستسقى الغمام لقبرها
وقد كنت أستسقى الوغى والقنا الصما

ولا نريد أن نسترسل فى النظر بهذه القصيدة ، وإنما نكتفى بالقول إنها صورة حية لما كانت عليه نفس المتنبى من الحزن والكمد ، وإنها مظهر واضح لما كان فيه من التبرم بالناس والحياة وأن وفاة جدته كانت مفجراً لعاطفته ، فأرسل نفسه على سجيتها فبكى فيها بكاء مراً :

حرام على قلبى السرور فإننى
أعد الذى ماتت به بعدها سما
وما انسدت الدنيا على لضيقها
ولكن طرفا لا أراك به أعمى
فوا أسفا أن لا أكب مقبلا
لرأسك والصدر الذى ملئا حزما

وتحدى الناس تحدياً صارخاً :

لئن لذ يوم الشامتين بيومها
فقد ولدت منى لا نفهم رغما
تغرب لا مستعظما غير نفسه
ولا قابلاً إلا لخالقه حكما

يقولون لى ما أنت فى كل بلدة
وما تبتغى ، ما أبتغى جل أن يسمى
كأن بنيهم عالمون بأننى
جلوب إليه من معادنه اليتما

واستهتر بالدنيا وما فيها :

كذا أنا يا دنيا إذا شئت فاذهبى
ويا نفس زيدى فى كرائهها قدما

هذا هو أثر المرأة الأم ، أو على الأصح المرأة الجدة ، فى شعر المتنبى ، فما هو أثر المرأة الزوجة والمرأة الحبيبة فى حياته وشعره ؟

إذا كان قد وجد بين المؤرخين من يذكر أم المتنبى فيقول إنها همدانية من صلحاء نساء الكوفة ، فإنه لم يوجد بينهم من يذكر زوجته أو يتحدث عنها بشيء ، فنحن لا نستطيع أن نعرف فى أى زمن تزوج المتنبى ، ولا فى أى طور من أطوار حياته ، ولا فى أى بلد من البلاد التى نزلها ، بل إن الغموض ليكتنف هذه النقطة من تاريخه كل الاكتناف ، وليس لدينا شيء واضح عنها ، غير أنه كان له ولد سماه « محسداً » ، أما من هى أم محسد ، وكيف اتصل بها المتنبى ، وأين اتصل ، وكيف كانت حياته معها ؟ فإنا لا نستطيع الإجابة على شيء من هذا . فهل عاشت معه فى بلاط سيف الدولة ؟ وهل انتقلت معه إلى مصر ؟ وهل ذهبت إلى أرجان وشيراز ؟ وهل امتدت بها الحياة بعده أم ماتت قبله ؟ كل ذلك لا يجيبنا عنه التاريخ بشيء ،